

الصحافة منذ أواخر القرن الماضي تخطو خطوات واسعة نحو اليسر والسهولة والقرب الشديد من لغة الحياة اليومية، لسبب طبيعي، وهو أنها تخاطب الجماهير وأكثرها من العامة التي لا تعرف العمق والصعوبة، وإنما تعرف اليسر والبساطة، وسرعان ما أخذ كتابها في السياسة والاقتصاد والأدب يبسطون مقالاتهم وأعمالهم حتى تفهم عنهم العامة. وتنوعت الصحف تنوعاً واسعاً بين يومية وأسبوعية وشهرية، وكثر عدد المحررين فيها كثرة مفرطة، وكان لذلك أثره الواسع في تبسيط لغة النثر إلى أبعد الآماد. وإذن فما يقوله خصوم التراث عن جمود الفصحى ووجوب إحلال العامية بسبب أساليبها العتيقة باطل من أساسه، فقد تطورت تطوراً خطيراً في جميع جوانبها، تطورت في أساليبها، وتطورت في موضوعاتها وفي فنونها الشعرية والنثرية.

وأفة الآفات في كل ما قدمنا أنه يوجد نفر يتنكر لتراثنا ومعاذ الله أن نتنكر له، وليس معنى ذلك أنني أدعو إلى وقف تطورها، بل أنا أدعو إلى التمسك بالتراث، بحيث نبعثه ونحييه وننشره في خير صورة علمية محققة، وفي الوقت نفسه نحاول عرضه عَرَضاً عصرياً، لكي ينتفع به أبنائنا على خير وجه، وليس ذلك فحسب، بل نستغله ونستلهمه في تطورها، بحيث يكون حافزاً لنا أي حافز على التطور بأدبنا وبحياتنا العقلية والفكرية. والخطأ كل الخطأ أن يظن ظان أن تمسكنا بالتراث يلغى عصريتنا، إنه يقفنا على معرفة مقوماتنا الثابتة، وهي معرفة من شأنها أن تؤكد وجودنا وأن تجعلنا ننهض بدورنا الحضارى في هذا العصر الذى نعيشه نهوضاً سديداً. وأمامنا الأمم المتحضرة العصرية جميعها تعنى أشد العناية بتراثها، وما كنا لنكون بدعاً في تلك الأمم، بل سنظل مثلها حريصين على ميراثنا من أسلافنا، وسنورثه أبناءنا لسبب طبيعي، وهو أنه يحمل خصائص شخصيتنا الأصيلة.